الطرق الصوفية ودورها في نشر الاسلام بإفريقيا جنوب الصحراء

عبد العزيز الهادي
جامعة سيدي بلعباس

الملخص :باتت إفريقيا جنوب الصحراء مسرحا لأحداث وتغيرات جذرية في جوانب عديدة دينية واجتماعية وثقافية وذلك بعد أن عرفت الإسلام واعتناق قبائلها له والتصدي للوثنية المتجذرة فيه. وفي الأصل أن العرب المسلمين - على حسب اعتقادنا - هم الذين أسهموا في بعث الحضاري والرقي للمنطقة في القرون الأولى لظهور الإسلام. وقد وصل العرب قبل ذلك بكثير إلى المنطقة وامتزجوا بسكانه فكونوا أعراقا جديدة.

مقدمة :

ساهمت الطرق الصوفية مساهمة فعالة في نشر الإسلام الطرقي كل حسب انتماءاته الصوفية وقد كانت للطريقة التيجانية الحظ الأوفر وذلك لما فيها من بساطة وسماحة. وفي حقيقة الأمر أن هذا الموضوع شائق لما فيه من جوانب عدة فتعرضت في البداية بتحديد للموقع الجغرافي الذي تقع فيه الدراسة ثم انتقلت إلى التركيبة العرقية لسكان تلك المناطق لأنهم هم من سيحملون مشعل نشر الإسلام بأسس الطريقة التيجانية، فانتقلنا إلى التواجد العربي بالمنطقة، فالعادات الوثنية التي سادة في المنطقة، ثم انتشار الإسلام و الثقافة العربية ومنها انتقلنا التعريف بأهم الطرق الصوفية التي انتشرت والتي كان لها دور فاعل، ومن هذه الطرق خصصنا وبالتفصيل قسما تكلمنا فيه حول الدور الذي لعبه الشيخ التيجاني من خلال تعاليم طريقته الصوفية، وبالتالي الدور الذي لعبه مريدوه الذين أخذوا على عاتقهم نشر الدعوة الإسلامية في المواطنهم وخارجها.

أولا :التعريف بإفريقيا جنوب الصحراء.

من المعروف أن كلمة السودان أطلقها العرب المسلمون على الشعوب التي تسكن المناطق الشاسعة التي تنحصر بين الصحراء الكبرى شمالا ، وخط عرض عشر جنوبا ، الجهة العليا لخط الاستواء. أما غربا فيحيطها

البحر الأحمر والمحيط الهندي، وشرقا المحيط الأطلسي، ونستطيع تقسيمها إلى ثلاث أقسام السودان الشرقي الذي يضم كلا من مناطق وادي النيل، وروافده العليا جنوب بلاط النوبة ، ويطلق عليها العرب بلاد الزنج[1]. أما القسمين الآخرين اللذان هما محل دراسة هما السودان الغربي والسودان الأوسط لذا تطرقنا إلى تعريفهما.

1- الموقع الجغرافي:

أ- السودان الغربي: يظم كل من حوض نهر السنغال ، و المناطق المحيطة به، وقامبيا ، وفولتا العليا والنيجر الأوسط (نيجيريا).

ب- السودان الأوسط: ويشمل حوض نهر بحيرة التشاد والمناطق المحيطة بها في إفريقيا الوسطى[2].أي تضم منطقة النيجر ونيجيريا والتشاد والكمرون والجابون والكونغ وجزء الغربي للسودان[3].

ثانيا: التحديات التي واجهة رجال التصوف في نشر الإسلام.

اتصفت المجتمعات الإفريقية بالبدائية كونها تتشبث بمعتقدات منتشرة في ربوعه وعرفة بما يسمى بالديانة الإحيائية[4] والتي تحوي على مظاهر عديدة ذات أشكال متنوعة. وقد نجد أن كل معتقد يخص جماعة معينة في مساحة جغرافية محدودة، فهذه المعتقدات غير مستقرة وقابلة للتطور رغم تأصلها وتجدرها في المجتمعات الإفريقية.

يفسر الأحيائيون من خلال اعتقاداتهم أن للكون قوة خفية تنظمه خلقت الكون دفعة واحدة وهو كائن راق يعلوا الكائنات ثم خلد إلى الراحة ووضع من ينوبه في تسييره فوضع الإله "لوا" لينوبه في لإدارة السماء بالتصرف في الرعد والبرق والمطر والخير والموت أما الإله "سو" فقد أنابه في إدارة الأرض مانحا إياه أدوات كالعمل والخير والشر و السحر لكن ترك فيه الأهواء البشرية[5].

يعتبر الأحيائيون أسلافهم كوسائط بينهم وبين القوة الخفية فيتوجهون إليهم بالعبادة، وهم يرمزون إليهم بأحد حيوانات أو بشيء من النبات أو الجماد في مرات أخرى، ويرمز إلى الحيوان أو ما يرمز إليه بالطوطم و نجد أن الطواطم الحيوانية أكثر عدد من النباتية، ونادرا ما نجد الطوطم عبارة عن جماد. والطوطم يرمز إلى قبيلة ما، ونستطيع تحدد القبائل بالطوطم الذي تقدسه.

كما أننا نجد في هذه المجتمعات البدائية عادات وتقاليد شاعت في إفريقيا قد تخول لنا تفسير بعض المظاهر لا إسلامية تنحدر من معتقدات مرسخة:

1- **وأد الأطفال:**

تعددت الأسباب التي تدفع المجتمع الإفريقي للارتكاب هذا النوع من التصرفات، فقد يولد الطفل بعاهة جسمية مستديمة أو تظهر فيه تغيرات جسمية قبل أوانها خلافا لما عَهِدُوهُ كنمو الأسنان العلوية قبل السفلية أو ظهور إصبع زائد أو ينقصه آخر أو يولد من رجليه بدل رأسه...، وبالتالي فهو نذير شؤم وقد أتت به روح شريرة، وسرعان ما يلجئون إلى التخلص منه.

2- **الكهانة:**

الكهانة حرفة ، والكاهن أو الكاهنة يدعيان معرفة أسرار والغيب[6]، و قد شاعت هذه التقاليد في إفريقيا باعتبار أن الإنسان مولع بفهم ما يحيط به وتفسير الظواهر الغامضة التي لا يجدون لها أسبابا وهكذا نجدهم يلجئون إلى الكهانة فهي الوسيلة الوحيدة التي تشبع هذه الحاجة.

3- **السحر:**

ومن المعتقدات التي كانت سائدة في إفريقيا جنوب الصحراء السحر والاعتقاد في السحرة ويميزان بين نوعين من السحر:

فالسحر النافع يطرد الأرواح الشريرة ويجلب السعادة والخير للفرد والجماعة ويشفي الأمراض ويعطي الطريقة الملائمة لعلاجها وكان بمثابة الطريقة الناجعة لحل المشكلات الاجتماعية المستعصية.

أما السحر الضار فهو الذي يفتك بالحرث والنسل ويزهق الأرواح ويفرق بين الناس...

4- **الشعوذة:**

عند الأحيائيين تجلب الخزي والعار وهي سبب الاضطهاد لمن يمارسها أو مشتبه به ممارستها. ويحكى عنها قصص عجيبة يصدقونها الإفريقيون إلى أبعد الحدود. كما أنه في اعتقادهم أن لبعض السحرة والمشعوذين القدرة على التشكيل في صورة حيوان أو طائر أو نبات، ويتعلمون هذه الحيل عن طريق الوراثة أو التدريب الخاص[7].

- **التخاطر:**

وهو انتقال الأفكار من شخص إلى شخص آخر دون استخدام وسائل الاتصال الحسية، وهو شكل من أشكال الإدراك المعنوي، وله تطبيقات كثيرة في الحياة اليومية خاصة عند التوائم.

- قراءة الأثر:

هو حالة خاصة من الاستبصار يستطيع فيها الوسيط أن يتلقى معلومات عن شخص أو شيء عن طريق الاتصال ببعض المتعلقات هذا الشخص أو الشيء تستخدم الملابس... في قراءة الأثر لمعرفة مكان الشخص أو الشيء.

- ضرب الرمل أو الخط:

وهو يستعمل لمعرفة الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، وله ستة عشرة شكلا وأسماء معروفة عند المحترفين أو الهواة، بحيث يرمز بعضها إلى الخير والبعض الآخر إلى الشر...

- استحضار الأشياء:

هو القدرة على تحريك الشيء من مكان إلى مكان آخر، أو استحضار شيء من مكان بعيد في لحظات، وهناك الكثير من الروايات المتواترة في هذا المجال.

دور القبائل الإفريقية في نشر الإسلام[8]:

حملت القبائل الإفريقية على عاتقها الدعوة الإسلامية و إيصالها إلى أدغال إفريقيا ومن هذه القبائل نجد قبيلة "الماندنجو" فهي من أكثر الشعوب تمسكا بالإسلام وحماسة لنشره فاشتهرت بالدعوة الإسلامية كما لها فرعان هما "الديولا" و"السوننك" فأصبحت كلمة سوننك مرادفة لكلمة داعية. يعود الفضل لهم في نشر الإسلام في بلاد الهوسا في القرن الثالث عشر الميلادي[9]. وقد أسلم عدد من الملوك والسلاطين، فملك التكرور أسلم حوالي 1048م. كما أسلم ملك سنغاي في عام 1075م. و أسلم سلطان مالي كنكن موسى والذي عرف بحجته الشهيرة سنة 1334م. ولما رجع اصطحب معه أتقياء من قريش و مهندس أندلسي يسمى "الساحلي" وهذا الأخير له الفضل في تخطيط تمبكتو، وعدة مدن أخرى[10].

4- دور الطرق الصوفية في نشر الإسلام:

لم تكن إفريقيا جنوب الصحراء بمعزل عن التطورات الحاصلة في العالم الإسلامي ككل، فقد مسها الإصلاح من خلال الطرق الصوفية ورجالها الذين عملوا على نشر الدين الإسلامي الحقيقي قوامه السنة النبوية والقرآن والسيرة النبوية. فنجدها منتشرة منذ القرون الأولى التي ظهر فيها التصوف[11].

ومن أهم الطرق الصوفية التي انتشرت بشكل واسع في إفريقيا جنوب الصحراء نجد الطريقة القادرية و الطريقة السنوسية أما الطريقة التيجانية وهي موضوع الدراسة فسيكون لها فصل خاص.

أ- القادرية:

كانت القادرية من الطرق الواسعة الانتشار في العالم الإسلامي وذلك بفضل صاحبها البارع في علوم الحياة وعلوم الحقيقة الشيخ عبد القادر الجيلاني. و قد حظيت إفريقيا جنوب الصحراء بنصيبها من علوم هذا العالم لما انتشرت طريقته فيها والتي دخلت إلى السودان الشرقي حين قام "تاج الدين البهاري" بزيارة إلى المنطقة بدعوة من أحد أثرياء المنطقة الذي اتقى به في مكة أثناء موسم الحج. ومنذ ذلك الوقت تعرفت المنطقة على الطريقة القادرية وانتشرت على نطاق واسع. أما إفريقيا الغربية عن طريق بلاد شنقيط - موريتانيا حاليا – وبالتحديد في "ولاتا" الواقعة في جنوب الصحراء الغربية و أصبحت مركزا للطريقة القادرية، وصل امتدادها في القرن الخامس عشر إلى تونبكتو، و لم تلبث أن كثر فيها و انتشر عدد كبير من الدعاة والمعلمين فوصلوا إلى مدينة "تمبو" في فولتا دجالون - غينيا حاليا- وعاش الكثير منهم في وسط الوثنيين يدعوهم الاعتناق الإسلام و يرسل بعضهم إلى البلدان الشمالية ليتم دراسته مثل قيروان أو طرابلس أو فاس أو تلمسان أو القاهرة. أسس الدعاة القادريون مدارس تحت إشرافهم تقوم على الإرشاد السلمي والدعوة إلى توحيد الله وترك عادات الوثنية لا أخلاقية.

ب- السنوسية:

أسس الشيخ السنوسي زاويته بالحجاز و بعد مضايقات من طرف الوهابيين اضطر للمغادرة في سنة(1843م) تاركا وراءه أتباعه المخلصين لإدارة شؤون الزاوية ملتحقا بالجبل الأسود بليبيا أين أسس زاويته بمنطقة البيضاء وكانت ذات طابع ديني سياسي كما أن الشيخ السنوسي كان متشبعا بأفكار الوهابيين دون إعلانها[12].

وصلت السنوسية إلى إفريقيا جنوب الصحراء وقد امتدت من نيجيريا الشمالية، حتى الجزء الغربي من القارة الإفريقية السمراء، تميزت بالنشاط و مقاومة العادات السيئة الوثنية كالرق و غيره، كما أن الشيخ السنوسي كان يشتري الرقيق من الزنوج ويعلمهم في زاويته تعاليم الإسلام، و اللغة العربية، والقرآن الكريم، ثم يعتقهم لينشروا الإسلام في مناطق عديدة من إفريقيا جنوب الصحراء. وقد شمل نشاط الشيخ بصفة خاصة على "واداي" و المناطق المجاورة لها من التشاد، حتى سلطان واداي اعتنق السنوسية كمذهب صوفي.

وقد حظيت السنوسية بانتشار واسع لما عرفته من بساطة في المبادئ والتعاليم وتسامحها مع الطرق الصوفية الأخرى، وهذا ما لا نجده في الطريقة القادرية على سبيل المثال، والتي لا تسمح لمريديها اعتناق مبادئ الطرق الأخرى[13].

وقد رد الدكتور عمار هلال على مزاعم الكتاب الفرنسيين بقوله"...يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين، إلى أن هذه الأخيرة - الطريقة السنوسية- لم تلعب أي دور كان، ولم تكن لها أية أهمية تذكر وذلك على كل المستويات العقائدية والثقافية والحضارية منها. لكن الحقيقة ليست كذلك تماما ... وتقريبا كل السنغاليين المسلمين ينتمون إلى طريقة صوفية ما، مما أوجد معه ارتباطا وثيقا بين الدين الإسلامي والطرق الصوفية في البلاد"[14]. ومن خلال هذا نرى أن كل طريقة قد لعبت أدوارا هامة و مصيرية في إفريقيا جنوب الصحراء لاستتباب السلم بين القبائل وإخراج الفرد الإفريقي من وثنيته و تأسيس مجتمع مسلم وحديث.

رابعا :انتشار الطريقة التيجانية في إفريقيا جنوب الصحراء.

لعبة التيجانية أكثر الأدوار وأخطرها في حمل راية نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء بحيث لم يقتصر دورها على الجانب الديني والاجتماعي بل تعدى ذلك ليشمل جوانب عدة حتى الميدان السياسي والتي أتاحت الفرصة لقيام عدة دويلات وأمارات التي تستند أساسا على تعاليم ومبادئ الطريقة وذلك مثل دولة الحاج عمر (1798م- 1865م) ودولة الشيخو أحمدو وغيرهما من الدول التي لم تعمر طويلا نظرا لاجتياح المستعمر الفرنسي و التخريب الذي حل على إثره في المنطقة"[15].

1- طرق انتشار التصوف الاسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء.

أ- التجارة:

لم تشكل الصحراء الكبرى عائقا أمام الاتصال بين سكان الشمال الإفريقي وسكان الجنوب (السودان الأوسط و الغربي)، و قد لعب دورا هاما لم يلعبه المحيط الأطلسي[16]. غدت التجارة السبيل الأول والمباشر لهذا الاتصال وذلك بالمبادلات التجارية من بضائع وأدوات متعددة الاستخدامات وغيرها، فكان التأثير الحضاري مصاحبا لذلك ويقول بن خلدون في كتابه التاريخ[17]"أنه في أواخر القرن الرابع عشر كانت القوافل التي تمر على الهقار تراوح عدد جمالها عشرة آلاف جمل في كثير من الأحيان. كما أن الطرق والمسالك التي كانت تمر عليها القوافل التجارية لها محطات كثيرة و مدنا شهيرة"[18].

كان التجار المسلمون من الأفارقة دعاة متحمسون فقد كسبوا احترام الوثنيين بنظافتهم و ثقافتهم و أخلاقهم مما أدى إلى التأثر بهم والدخول هم في الدين الإسلامي الذي يرتقي بالشخص إلى مراتب حضارية عالية.

حظيت التيجانية بازدهار كبير في النشاط الاقتصادي وخاصة في المجال التجاري في الفترة الممتدة بين أواخر القرن الثامن عشر والخلال القرن التاسع عشر حيث استطاع التيجانيون من أن يقيموا تجارة مزدهرة بين عين ماضي وإفريقيا جنوب الصحراء.

واتخذوا هذه التجارة وسيلة لنشر طريقتهم شاقة الطريق من عين ماضي مارة بأدرار إلى تمبكتو ثم سيغوا ومنها إلى السنغال[19].

حققت الطريقة التيجانية هدفين لاهتمامها بالتجارة تمثلا في تدفق الأموال على عين ماضي وتماسين، ودينيا بنشر تعاليم طريقتهم الصوفية وبالتالي نشر الإسلام خارج الحدود الجزائرية"[20]. وقد أثارت هذه الخيرات التي تحصل عليها التيجانيون أطماع باي وهران وباي تطري خاصة بعد قلة عائدات الجهاد البحري.

ب- دور الزوايا و طلاب العلم:

صاحب العمل التجاري تنقلات الطلاب القادمون من المناطق إفريقيا جنوب الصحراء والذين استتب فيهم الإسلام قصدين المدن الكبرى لإشباع رغباتهم العلمية فتجدهم ينهلون من شتى العلوم في الفقه والشريعة والرياضيات وغيرها من العلوم ويتهافتون على العلماء الأجلاء. ومن الطبيعي أنهم تعرفوا على الطريقة التيجانية عن طريق التجار التيجانيون أو أنهم احتكوا بعلمائها أمثال الشيخ عبد الكريم الناقلي. كما أن الدعاة التيجانيين إضافة إلى كونهم علماء وفقهاء ومثقفين تجدهم يمارسون العمل التجاري الذي يتيح لهم الانتقال إلى الأماكن المختلفة ناشرا أفكار طريقته الصوفية.

كما لعبت زوايا التيجانية في عين ماضي، أو في تماسن، أو في فاس أدوارا عديدة، وكذلك في إفريقيا جنوب الصحراء فنجد أن الزاوية التي أنشأها الحاج عمر تال فقد ساهمت إسهاما مصيريا في انتشار الطريقة في أوساط الأفارقة بفضل الميادين المختلفة والعديدة ومنها التعليمية ، فكان بها غرف لتحفظ القرآن وتدريس العلوم الإسلامية ومختلف العلوم

فقد تخرج منها الكثير من الدعاة الذين انتشروا في مختلف المناطق ، ولها أدوار الاجتماعية تمثل في القضاء على الأفكار الخرافية والتقاليد الوثنية ومساعدة المحتاجين وأما السياسية فقد تكون على إثرها إمبراطورية تيجانية، وحتى الدور عسكري فكانت بمثابة قلاع أو بالأحرى مدارس عسكرة لتدريب المجاهدين الدين كرسوا حياتهم لنشر الإسلام بين الوثنيين متخذين من الطريقة التيجانية منهجاً.

ج- الحج:

إن الحجاج إفريقيا جنوب الصحراء المتجهين نحو البقاع المقدسة لإتمام الركن الخامس من أركان الإسلام، أتاح لهم التعرف على مدنا لم يروها من قبل أو قد سمعوا بها، و من محاسن الصدف أن طرق قوافل الحجاج تمر على

أماكن تمركز الطريقة التيجانية كتوات، ووادي سوف، وتماسين، عين ماضي ،و تلمسان وبالتالي فقد تعرف الحجاج على الطريقة التيجانية و أخذوا الأوراد و أهدافها عن شيوخها ولما رجعوا عملوا على نشرها.

الخاتمة:

لم تكن إفريقيا جنوب الصحراء معزولة عن العالم الخارجي بل كان هناك اتصال دائم بينها وبين العرب والبربر منذ القديم أي قبل دخول الإسلام وقد تميز الحال قبائلها بالبدائية بمختلف مظاهره من ديانة وثنية وزراعة بسيطة وغيرها أما بعد دخول الإسلام وحمله المظاهر الحضارية استطاع اجتثاث منطقة جنوب الصحراء ونقلها نقلة نوعية نحو التحضر ونبذ الوثنية والتصرفات الغير أخلاقية.

لقد ساهمت الطرق الصوفية التي انتشرت في المنطقة مساهمة فعالة فقد مس الإصلاح من خلال رجالاتها الذين عملوا على نشر الدين الإسلامي الحقيقي قوامه القرآن و السنة النبوية و السيرة الشريفة. فنجدها منتشرة منذ القرون الأولى التي ظهر فيها التصوف. ومن أهم الطرق الصوفية التي انتشرت بشكل واسع في إفريقيا جنوب الصحراء نجد الطريقة القادرية و الطريقة السنوسية أما الطريقة التيجانية فقد لعبة أكثر الأدوار وأخطرها في حمل راية نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء بحيث لم يقتصر دورها على الجانب الديني والاجتماعي بل تعدى ذلك ليشمل جوانب عدة حتى الميدان السياسي والتي أتاحت الفرصة لقيام عدة دويلات وأمارات التي تستند أساسا على تعاليم و مبادئ الطريقة وذلك مثل دولة الحاج عمر (1798م- 1865م) ودولة الشيخو أحمدو وغيرهما من الدول التي لم تعمر طويلا نظرا لاجتياح المستعمر الفرنسي والتخريب الذي حل على إثره في المنطقة.

الاحالات و الهوامش :

1. يحيى بوعزيز ، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، دار هومه ، الجزائر- 2001 ،ص9.
2. يضم الدكتور يحيى بوعزيز السودان الأوسط إلى إفريقيا الغربية لما لها من ارتباطات وثيقة بالسودان الغربي من ناحية الإسلامية.
3. الماحي عبد الرحمن عمر، الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع و المستقبل، د.م.ج، الجزائر- 1992، ص10.
4. الديانة الأحيائية: هي الاعتقاد بقوة روحية في الأشياء أي أن الجماد و النبات أرواح متشابهة لتلك التي لدى الإنسان و أن الروح هي مبدأ الفكر و الحياة العضوية في آن واحد.
5. الماحي عبد الرحمن عمر، م س، ص 65.
6. عند اليهود و الأحيائيين الذين يقدم القرابين و الذبائح للآلهة.
7. الماحي عبد الرحمن عمر ، م.س، ص18.
8. أنظر الملحق رقم2.
9. ابراهيم علي طرخان، م س، ص55.

10. عمار هلال، م س، ص25
11. نفسه، م س، ص95.
12. نعيم قداح، حضارة الإسلام و حضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر- 1975م، ص91.
13. عمار هلال، م س، ص133.
14. نفسه، ص134.
15. نفسه، ص123.
16. نعيم قداح، م س، ص211.
17. ابن خلدون، التاريخ
18. أنظر الملحق رقم 01.
19. عمار هلال، م س، ص126.
20. L.Rinn,op.cit,p424.